

- ٦٤ -

الصورة الخيالية ، لا يبد من السمو عن مستوى الحواس ، والاعتماد على قوة الإدراك لتتضح الأفكار . وفي عملية الإدراك يرجع المرء إلى قائمة من الأفكار المدركة بعيدة كل البعد من الانطباعات الحسية التي تولدها فينا الصورة في بادئ الأمر .

وفي هذه الفلسفة العقلية يتضاد عالم الخيال والصور مع عالم الحقيقة والعقل . فليست الصور المادية طريقاً للفكرة . فالفكرة هي ما يتركه العقل مباشرة ، وقيمة اللغة تنحصر في دلالتها على الأفكار لا على الصورة . يقول ديكارت : « وإنما تكتسب الكلمات صفاتها العامة الإنسانية بدلالاتها على الأفكار ، لا بد لالتها على الصور » . ويخبر باسكال من الصور التي تعلق بالكلمات فتضل المرء عن الحقيقة . وعنده أن هذه الصور تأتي من دلالات الكلمات والعبارات المجازية ، أو من المعاني التي تدل دلالة تبعية عليها الكلمات والعبارات بسبب جرسها وموسيقاها ، حين تثير في النفس انفعالات خاصة ليست من طبيعة الكلمات في أصل وضعها . ولن نستطيع أن نصل إلى الحقيقة إلا بتطهير الكلمات من هذه المعاني الثانوية التي تضيفها الخيلة . فلنسا في حاجة إلى الصور والمجازات إلا بقدر ضئيل ، وفي قصد ، في سبيل تحريك النفس وإثارتها للتعرف على الحقيقة .

وعند الكلاسيكيين أن الخيال يجب أن يظل تحت وصاية العقل ، لأن الخيال في ذاته « غريزة عمياء » ، وهو « قسمة مشتركة بين الإنسان والحيوان » ولذا أشادوا بسلطان العقل في أجناس الأدب جميعاً ، ومنها الشعر الغنائي . وقد سجل الشاعر « بوالو » هذه القاعدة فيما يجعله من قواعد الكلاسيكيين حين قال : « فلتحبوا دائماً العقل . ولتستمد دائماً مؤلفاتكم منه وحده كل ما لها من رونق وقيمة » .

ويقول « لا بروير » La Bruyère « الكلاسيكي الفرنسي : « يجب ألا تحتوي أحاديثنا أو كتبنا على كثير من الخيال ، لأنه لا ينتج غالباً إلا أفكاراً باطلة صيغانية ، لا تصلح من شأننا ، ولا جدوى منها في صواب الرأي . ويجب أن تصلر أفكارنا عن اللوق السليم والعقل الراجح ، وأن تكون أترأ لتفاذ البصيرة » .